الإذن بالقتال وفرض الجهاد

ما أن استقرَّ المسلمون من مهاجري مكّة في المدينة، هؤلاء المسلمون الّذين وصفهم اللهُ سبحانه وتعالى يوم كانوا بمكّة بقوله: (وَاذْكُرُوا إذْ أنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ، فَآوَاكُمْ، وَأيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.) (الأنفال ٢٦/٨)

حتى نزل لهم الإذن من الله تعالى بالقتال للدِّفاع عن أنفسهم وعن دينهم، حيث قال عزَّ من قائل: (أذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَأنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إلاَّ أنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ. وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ، وَبِيَعٌ، وَصَلَوَاتٌ، وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً. وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أقَامُوا الصَّلاةَ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ، وَأمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ.) (الحجّ ٣٩/٢٢-٤١)

ولمّا استحكم أمرهم، وتأسَّست قوَّتهم بتلاحم العنصر المهاجر بالعنصر الأنصاري، كُتِبَ عليهم القتال وأصبح فرضاً بقول الله عزَّ وجلَّ: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ، وَعَسَى أنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَعَسَى أنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ. وَاللهُ يَعْلَمُ وَأنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ.) (البقرة ٢١٦/٢)

وقال سبحانه وتعالى مكرِّراً أمره للمسلمين بالقتال: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.) (البقرة ٢٤٤/٢)

وقال سبحانه في فضل الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله: (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ ألِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأمْوَالِكُمْ وَأنْفُسِكُمْ. ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.) (الصف ١٠/٦١-١١)

ومنذ ذلك الوقت أصبح الجهاد ركناً من أركان الإسلام، لأنَّ الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلَّم صار يشترطه على من يبايعه من الرجال القادرين عليه، كما حدَّث بشير بن الخصاصية، قال: "أتيت النبيَّ صلّى الله عليه وسلَّم لأبايعه على الإسلام، فاشترط عليَّ، فقال: (تشهد أنْ لا إلـهَ إلاَّ لله، وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله، وتقيم الصلاة، وتُؤْتِي الزكاة، وتحجُّ البيت، وتصوم رمضان، وتجاهد في سبيل لله.)

قال، قلت: ولله! يا رسول الله! أمَّا اثنتان فلا أطيقهما، الصدقة والجهاد. ولله! ما لي إلاَّ عشر ذَوْد (إبل)، هنَّ رسْلُ أهلي وحمولتهنّ؛ وأمَّا الجهاد، فيزعمون، أنَّه من ولَّى فقد باء بغضب من لله عَزَّ وجلَّ، وأخاف إن حضر القتال جزعت نفسي، وخفت الموت.

قال: فقبض رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم يده، ثم بسطها، فقال: (لا صدقة، ولا جهاد! فبِمَ تدخل الجنَّة؟)

قال، قلت: يا رسول الله! أبايعك. فبايعني عليهنَّ كلّهن."[٣٥٢]

زيادة على النجاة من العذاب التي هي الفوز الأكبر لكلّ إنسان يوم لا ينفع مال ولا بنون، فإنّ لله تعالى بمنّه وكرمه على عباده المؤمنين المجاهدين في سبيله أضاف إلى إحسانه إحساناً أعظم، وهذا الإحسان كما أخبرنا به سبحانه هو: (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا، نَصْرٌ مِّنَ للهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (الصف ٦١/١٢-١٣)

إنَّ الإذن بالقتال، والأمر بالجهاد ليس إذناً مطلقاً، بمعنى، أنَّه يجوز للمسلم أن يعلن الحرب على المذنب والبريء، حاشا لله أن يُصدر أمراً أو إذناً كهذا، بل الحرب مسموحة للمسلم تحت ظروف وشروط معيَّنة، أهمّها الدفاع عن النفس، وحماية المسلمين وأموال المسلمين أن تنتهك وتنتهب، فإنَّ لله سبحانه وتعالى بيَّن مشروعية مَن يُقاتِلون وضدّ مَن يجاهدون بقوله: (لا يَنْهَاكُمُ للهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ الله

---

[٣٥٢]ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٢٢٧.

يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَأَخْرَجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ، وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ، أَنْ تَوَلَّوْهُمْ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.) (الممتحنة ٦٠/٨-٩)

وبعد سنتين من هجرتهم كان للمسلمين من المهاجرين والأنصار أوّل لقاء عسكري مع كفّار قريش الّذين أخرجوا المسلمين من ديارهم من مكّة، وجاء النصر والفتح من الله، وفاز المؤمنون فوزاً عظيماً.

معركة بدر الكُبرى

في شهر رمضان، شهر القرآن، في السنة الثانية للهجرة، كانت معركة بدر الكبرى، وهي المعركة الحاسمة التي قرَّرت مصير الأمَّة الإسلامية ومصير الدعوة الإسلامية، وعليها توقَّف مصير الإنسانية الدِّيني والمعنوي، إذ كل ما حدث من فتوحات وانتصارات إسلامية، وكل ما قام من دُوَل وحكومات مَدِين للفتح المبين في ميدان بدر، لأنَّ هذه المعركة فرَّقت بين الحقّ والباطل، وبين الإيمان والكفر، كما دعاها الله سبحانه وتعالى بقوله: (إنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ، يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ.) (الأنفال ٨/ ٤١)[٣٥٣]

في هذا اللقاء العسكري كانت دوافع الفريقين المتحاربين متناقضة، فالفريق المكّي، الكافر، القوي عسكريًّا، كانت دوافعه شرِّيرة تريد أن تقضي على الرسول وعلى الإسلام، كما وصفه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم صبيحة المعركة بقوله: (أَللَّهُمَّ! هَذِهِ قُرَيْشُ قَدْ أَقْبَلَتْ فِي فَخْرِهَا وَخُيَلائِهَا، تُحَادُّكَ وَتُحَادُّ رَسُولَكَ.)[٣٥٤]

ولكن أنَّى للكافرين من قريش أو غيرهم من الناس القوة للقضاء على الإسلام، والله سبحانه وتعالى يقول، وهو أصدق القائلين: (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَيَأْبَى اللهُ إلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.) (التوبة ٩/ ٣٢)

وقال جَلَّ وعلا أيضاً: (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ.) (الصف ٦١/ ٨-٩)

٣٥٣ــ انظر الندوي، السيرة النبوية، ص ٢٤٠.

٣٥٤ــ ابن كثير، الفصول في اختصار سيرة الرسول، ص ١١٧.

أمّا الفريق المديني، المسلم، الضعيف عسكريًّا، كانت دوافعه، الإيمان، ونشر التوحيد، وعبادة الله وحده في الأرض، وتحرير الإنسان من عبودية الإنسان لعبادة الله وحده، وإقامة مجتمع مؤسَّس على المساواة والعدل، كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مخاطباً ربَّه عزَّ وجَلَّ لمَّا حَمِيَ وطيس المعركة واشتدَّ القتال: (اللَّهُمَّ إنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ لا تُعْبَدْ فِي الأرْض.)[٣٥٥]

هذان الفريقان المتحاربان وصفهم الله سبحانه وتعالى، وأخبر عمَّا ينتظر كلّ واحد منهما من الجزاء والعقاب، بقوله: (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا، قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ، وَلَهُمْ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا، وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ. إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ،وَهُدُوا إلى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ،وَهُدُوا إلى صِرَاطِ الْحَمِيدِ)(الحج٢٢/١٩-٢٣)

شتَّان بين الفريقين وما ينتظر أحدهما من الجزاء، وما ينتظر الآخر من العقاب عند الله. واستطاع الفريق المسلم، الضعيف عسكريًّا، القويّ بإيمانه أن يهزم الفريق الكافر، القويّ عسكريًّا، الضعيف بإيمانه هزيمة منكرة رغم قلّة عدده وضعف معدَّاته الحربيّة، حيث كان عدد أفراد الجيش الكافر يزيد ثلاثة أضعاف على عدد أفراد الجيش المسلم.

إنَّ سلاح الإيمان الَّذي تسلَّح به المسلمون يوم بدر أثبت نجاعته وفعّاليته في كلّ المعارك التي خاضها المسلمون مع أعدائهم في كلّ تاريخهم، هذا الإيمان المفعم الَّذي ملأ قلوب المسلمين دفعهم إلى التضحية بالنفس والنفيس، كما فعل عُمَيْر بن الحُمام، أخو بني سَلِمة رضي الله عنه في معركة بدر، وكان في يده تمرات يأكلهنَّ، فقال: "بَخٍ! بَخٍ! أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلاَّ أن يقتلني هؤلاء؟" ثمَّ قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قُتِل. رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنّة مأواه.[٣٥٦]

---

[٣٥٥] ـ ابن كثير، الفصول، ص ١١٩.

[٣٥٦] ـ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٤١٢؛ ابن القيّم، زاد المعاد، ج ١، ص ٣٤٥.

دَوْر الفِتْيان في المعركة [٣٥٧]

ولنستمع إلى قصّة أخرى من قصص التضحية بالنفس في سبيل الله للحصول على إحدى الحسنيين، النصر أو الشهادة، وفي هذه المرّة حصل على الشهادة، وهي قصّة الفتى الصغير عُمَيْر بن أبي وقاص الذي استُشْهد إلى رحمة الله وجنّته يوم بدر، كما يروي القصّة أخوه، سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: "رأيت أخي، عُمَيْر بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للخروج إلى بدر يتوارى، فقلت: ما لك يا أخي؟

قال: إنّي أخاف أن يراني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فيستصغرني، فيَرَدّني، وأنا أحبّ الخروج لعلّ الله يرزقني الشهادة.

قال: فعُرِضَ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فاستصغره، فقال: ارجع!

فبكى عُمَير، فأجازه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

قال سعد: فكنت أعقد له حمائل سيفه من صغره.

فقُتِلَ ببدر وهو ابن ستّ عشرة سنة، قتله عمرو بن عبد وَدّ." [٣٥٨]

إنّ عمير بن أبي وقاص لم يكن الفتى المسلم الوحيد الّذي دفعه إيمانه للاشتراك في المعركة والاستشهاد في سبيل الله، فدخل في عداد الشهداء الّذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: (وَلا تَحْسَبَنَّ الّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً، بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بالّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ألاّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ، وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ) (آل عمران ٣/١٦٩-١٧١)

٣٥٧ــ للمزيد من المعلومات حول دور الشباب في المجتمع الإسلامي الأوّل، أنظر كتابنا (اشباب المسلم المجاهد) بالإنكليزية.

٣٥٨ــ ابن سعد، الطبقات، م ٣، ص ص ١٤٩–١٥٠؛ ابن حبان، السيرة النبوية، ص ١٥٨.

لقد كان هناك عدد من الفتيان غير عُمَيْر بن أبي وقاص سعَوْا للموت لنيل الشهادة في المعركة في سبيل الله، ولكن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ردَّهم لصغر سنِّهم، منهم: سَمُرَة بن جُنْدُب ورافع بن خَديج، وهما ابنا خمس عشرة سنة، وشفع أبو رافع لابنه، وقال: يا رسول الله! إنَّ ابني رافعاً رامٍ. فأجازه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

وعُرِضَ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سَمُرة بن جندب وهو في سنِّ رافع، وردَّه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لصغره، فقال سَمُرة: لقد أجَزْت رافعاً ورددتني، ولو صارعته لصرعته، ووقعت المصارعة بينهما، فصرع سَمُرة رافعاً، فأجيز، وخرج وقاتل يوم أُحُد.[359]

وكان ممّن رُدَّ يومئذ أسامة بن زيد بن حارثة، وأُسَيْد بن ظُهَيْر، والبراء بن عازب، وزيد بن أوس، وعمرو بن حزام. ثمّ أجازهم يوم الخندق.[360]

موقف إيمانيّ رائع تمثّله هذه الفئة من الشباب المؤمن الذي منحته العقيدة قوّة القلب والعزيمة الصادقة رغم صغر السنّ وطراوة العود.

هكذا كان شباب محمّد صلّى الله عليه وسلّم يواجه مسؤولياته جنباً إلى جنب مع الكهول والشيوخ من الرجال، وينهض بالأمور الجسام، وإنّ أمّة يتساوى فيها الكبار والصغار بالإحساس بالمسؤولية والاندفاع إلى الجهاد في سبيل الله لجديرة بالنصر والسؤدد والحياة.[361]

والقصّة التالية التي رواها أنس بن مالك عن مثل هؤلاء الرجال العظام تثبت ما قلناه.

روى أنس، قال: "جاء ناسٌ إلى النّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم، أنِ ابعث معنا رجالاً يعلّمونا القرآن والسُّنّة. فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم: القُرَّاء، فيهم خالي حَرام، يقرأون القرآنَ، ويتدارسون باللّيل يتعلّمون، وكانوا بالنهار

---

[359]ـ ابن هشام، سيرة رسول الله، ج ٢، ص ٦٦؛ الندوي، السيرة، ص ص ٢٥٩-٢٦٠.

[360]ـ ابن كثير، الفصول، ص ١٢٩.

[361]ـ ابن كثير، الفصول، ص ١٢٩، تعليق رقم ٢ في الهامش.

يجيئون بالماء، فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصُّفَّة وللفقراء، فبعثهم النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم، فعَرَضوا لهم، فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان، فقالوا: اللَّهُمَّ! بَلِّغْ عنّا نبيَّنا أنّا قدْ لقِيناكَ فرَضِينا عنْكَ ورَضِيتَ عنّا.

وأتى رجل حراماً خالَ أنس من خلفه، فطعنه برمح حتى أنفذه، فقال حرام: فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ!

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (إنَّ إخْوانَكُمْ قدْ قُتِلُوا، وَإنَّهُمْ قالوا: اللَّهُمَّ! بَلِّغْ عنّا نَبيَّنا أنّا قدْ لقِيناكَ، فرَضِينا عَنْكَ وَرَضِيتَ عنّا)" [٣٦٢]

٣٦٢ــ رواه البخاري، ومسلم؛ انظر النووي، رياض الصالحين، كتاب الجهاد، حديث ١٣١٤، ص ٥٠٦-٥٠٧.

معركة أُحُد

في شوّال سنة ثلاث من الهجرة وقعت معركة أُحُد، وهي وقعة امتحن الله عزَّ وجلَّ فيها عباده المؤمنين، واختبرهم، وميَّز فيها بين المؤمنين والمنافقين.[٣٦٣]

دخل المسلمون المعركة مع عدوٍّ يزيد عليهم ثلاثة أضعاف، حيث كان عدد المسلمين ألفاً، وعدد الكفّار ثلاثة آلاف.

دخل المسلمون المعركة وهم يتربَّصون إحدى الحسنيين، النصر أو الشهادة، كما قال الله سبحانه وتعالى: (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بنا إلاّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ، وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بكُمْ أنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أوْ بأَيْدِينا، فَتَرَبَّصُوا إنّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ.) (التوبة ٩/٥٢)

وأحد الّذين دخلوا المعركة يطلب إحدى الحُسْنَيَيْن، وهي الشهادة، عبد الله بن جحش الّذي سمعه أحدهم وهو يقول قبل يوم أُحُد بيوم: "اللهمَّ! إنّا مُلاقو هؤلاء غداً، فإنّي أقسم عليك لما يقتلوني، ويبقروا بطني، ويجدعوني، فإذا قلت لي: لِمَ فُعِلَ بك هذا؟ فأقول: اللهمَّ! فيك.

فلمّا التقوا فعلوا ذلك به.

وقال الرجل الذي سمعه: أمّا هذا فقد استجيب له، وأعطاه الله ما سأل في جسده في الدنيا، وأنا أرجو أن يعطى ما سأل في الآخرة."[٣٦٤]

إنّ الفوز بإحدى الحسنيين، ألنصر أو الشهادة، لم يتوقف عند الشباب المؤمن الْمُتَوَثِّب، بل تعدّاه إلى الشيوخ الطاعنين في السنّ، مثل، حُسَيْل بن جابر، وثابت بن وقش، كما روى الطبري: "لمّا خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى أحُد

٣٦٣ـ ابن كثير، الفصول، ص ١٢٧.

٣٦٤ـ ابن سعد، الطبقات، م ٣، ص ص ٩٠-٩١.

رفع حُسَيْل بن جابر ـ وهو اليمان، أبو حذيفة بن اليمان ـ وثابت بن وقش بن زعوراء في الآطام (الحصون) مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه، وهما شيخان كبيران: لا أبا لك! ما تنتظر؟ فوالله إن بقي لواحد منّا من عمره إلاّ ظِمْءِ حمار[٣٦٥]، إنّما نحن هامة اليوم أو غدٍ، أفلا نأخذ أسيافنا، ثمّ نلحق برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لعلّ الله عزّ وجلّ يرزقنا شهادة مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأخذا أسيافهما، ثمّ خرجا حتّى دخلا في الناس، ولم يُعلَم بهما، فأمّا ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأمّا حسيل بن جابر، اليمان، فاختلف عليه أسياف المسلمين فقتلوه، ولا يعرفونه، فقال حذيفة: أبي! قالوا: والله إن عرفناه، وصدقوا. قال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين! فأراد رسول الله أن يَدِيَهُ، فتصدَّق حذيفة بدِيَته على المسلمين، فزادته عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خيراً."[٣٦٦]

لم يكن ليمنع المسلمين من الفوْز بأحدى الحُسْنَيَيْن شيء في الدنيا، حتى ولا العريس يوم عرسه، مثل ما فعل حنظلة بن أبي عامر، قالوا: "وكان حنظلة بن أبي عامر تزوّج جميلة بنت عبد الله بن أُبَيّ بن سلول، فأُدخِلت عليه في الليلة التي في صبحها قتال أُحُد. وكان قد استأذن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يبيت عندها، فأذن له. فلمّا صلّى الصبح غدا يريد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولزمته جميلة، فعاد، فكان معها، فأجنب منها، ثمّ أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها، فأشهدتهم أنّه قد دخل بها، فقيل لها بعد: لِمَ أشهدت عليه؟ قالت: رأيت كأنّ السماء فرجت، فدخل فيها حنظلة، ثمّ أطبقت، فقلت: هذه الشهادة. فأشهدتْ عليه أنّه قد دخل بها. وتَعْلَق[٣٦٧] بعبد الله بن حنظلة.
وأخذ حنظلة بن أبي عامر سلاحه، فلحق برسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأُحُد وهو يسوِّي الصفوف.

٣٦٥ــ أي مدّة ما يعطش الحمار، وهي مدّة قصيرة لأنّ الحمار أسرع الحيوانات عطشاً.

٣٦٦ــ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٥٣٠.

٣٦٧ــ تعلق = تحمل.

قال: فلمّا انكشف المشركون، اعترض حنظلة بن أبي عامر لأبي سفيان بن حرب، فضرب عرقوب فرسه، فاكتسعت الفرس، ويقع أبو سفيان بن حرب، وحنظلة يريد ذبحه بالسيف، فأسْمَعَ الصوتَ رجالاً لا يلتفتون إليه من الهزيمة، حتى عاينه الأسود بن شَعوب، فحمل على حنظلة بالرمح، فأنفذه، فمشى حنظلة إليه بالرمح، وقد أثبته، ثم ضربه الثانية، فقتله، وهرب أبو سفيان."[٣٦٨]

وأكرم اللهُ حنظلة بالشهادة، "ومرَّ عليه أبوه الذي كان كافراً، وهو مقتول إلى جنب حمزة بن عبد المطلب، وعبد الله بن جحش، فقال: إن كنت لأحذّرك هذا الرجل ـ يعني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ـ من قبْل هذا المصرع، والله إن كنت لَبَرَّاً بالوالد، شريف الخُلُق في حياتك، وإنَّ مَماتك لَمَعَ سَراة أصحابك وأشرافهم. وإن جزى الله هذا القتيل ـ حمزة ـ خيراً، أو أحداً من أصحاب محمد، فجزاك الله خيراً.

ثمّ نادى: يا معشر قريش! حنظلة لا يُمَثَّل به وإن كان خالفني وخالفكم، فلم يَألُ لنفسه فيما يرى خيراً. فمُثِّلَ بالناس وتُرك فلم يُمَثَّل به."[٣٦٩]

شهادة طيِّبة من والد كافر لابنه الشهيد المؤمن. لكنّ الله سبحانه وتعالى زاد حنظلة شرفاً زيادة على شرف الشهادة في سبيله، حيث غسَّلته الملائكة، كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (إنّي رَأَيْتُ الْمَلائِكَةَ تُغَسِّلُ حَنْظَلَةَ بْنَ أبي عامِرٍ بَيْنَ السَّماءِ وَالأرْضِ بِماءِ الْمُزْنِ[٣٧٠] في صِحافِ الْفِضَّةِ.)

قال أبو أُسَيْد الساعديّ: فذهبنا فنظرنا إليه فإذا رأسه يقطر ماء.

قال أبو أسيد: فرجعت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ،فأخبرته، فأرسل إلى امرأته، فسألها، فأخبرته أنّه خرج وهو جُنُب."[٣٧١]

ومثل هذه التضحيات كثير في كتب التاريخ والسِّيَر أكثر ممّا يُحصى، ومن أراد المزيد فليرجع إلى هذه المصادر.

---

[٣٦٨]ــ الواقدي، المغازي، ج ١، ص ص ٢٧٣-٢٧٤.

[٣٦٩]ــ الواقدي، المغازي، ج ١، ص ٢٧٤.

[٣٧٠]ــ المزن = المطر.

[٣٧١]ــ الواقدي، المغازي، ج ١، ص ٢٧٤.

التخطيط العسكري وسَيْر المعركة

ومضى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى نزل الشِّعْبَ من أُحُد، وجعل ظهره وعسكره إلى أُحُد، وقال: لا يقاتِلنّ أحد منكم حتى نأمره بالقتال، فلمّا أصبح تَعَبَّأَ عليه الصلاة والسلام للقتال في أصحابه، وكان فيهم خمسون فارساً، واستعمل على الرُّماة ـ وكانوا خمسين. عبد الله بن جُبَيْر الأوسي، وأمره وأصحابه أن لا يتغيَّروا من مكانهم، وأن يحفظوا ظهور المسلمين أن يؤتوا من خلفهم، وأن لا يفارقوا مكانهم ولو رأوا الطير تتخطّف العسكر.

واقتتل الناس حتى حمي وطيس الحرب، وأنزل الله تعالى نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، حتى كشفوا المشركين فانهزموا راجعين حتى وصلوا إلى نسائهم.

ولكن عدم إطاعة الرُّماة لأوامر الرسول صلّى الله عليه وسلّم، القائد الأعلى للجيش المسلم أضاعت النصر من أيدي المسلمين، وتحوّل النصر إلى هزيمة، لأنّ هؤلاء الرُّماة عندما رأوا هزيمة المشركين، قالوا: يا قوم! الغنيمة! الغنيمة! فذكَّرهم أميرهم، عبد الله بن جُبَيْر عهدَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فلم يسمعوا، وظنّوا أن ليس للمشركين رجعة، وأنّهم لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك، فأخلَوا الثغر، وذهبوا في طلب الغنيمة، وكَرَّ الفرسان من المشركين فوجدوا تلك الفُرجة قد خلت من الرُّماة، فجازوها وتمكّنوا، وأقبل آخرهم، فكان ما أراد الله تعالى كونه، استُشْهد من أكرمهم الله بالشهادة من المؤمنين، فقُتِل جماعة من أفاضل الصحابة، وتولّى أكثرهم. وجُرِحَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وسقط في حفرة من الحفر، وصرخ صارخ: إنّ محمداً قد قُتِلَ، فتراجع المسلمون، وكَرَّ المشركون كَرَّةً.

ومرَّ أنس بن النضر بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم، فقال: ما تنتظرون؟
فقالوا: قُتِلَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.
فقال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا! فموتوا على ما مات عليه!
ثمّ استقبل الناس، ولَقِيَ سعد بن معاذ، فقال: يا سعد! والله! إنّي لأجد ريح الجنّة من قِبَلِ أحُد، فقاتل حتى قُتِلَ رضي الله عنه، ووُجِدت به سبعون ضربة.[٣٧٢]

---

[٣٧٢] ـ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ص ٥١٧-٥١٨.

دَوْرُ النّساء في المعركة [٣٧٣]

وفي هذا المقام لا ننسى أفعال النساء المسلمات المؤمنات من ذلك الجيل المسلم المؤمن المكافح الّذي تكاتف فيه الرجال والنساء، والشيب والشبان، والفتيان والفتيات على نشر دين الله وإقامة مجتمع مؤسَّس على التقوى والإيمان والعدل والمساواة، كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (لا فَضْلَ لِعَرَبيٍّ على عَجَمِيٍّ، وَلا فَضْلَ لِعَجَمِيٍّ عَلى عَرَبيٍّ، إلاّ بالتَّقْوَى.) [٣٧٤]

وكانت المرأة المسلمة في ذلك المجتمع مؤمنة، حرَّة، ضمن قيود إيمانها، تحسن التصرُّف في وقت الرخاء وفي وقت الشدَّة.

وشاركت النساء المسلمات المؤمنات لأوّل مرّة في هذه المعركة، كمحاربات، وممرِّضات، ومساعدات في أمور أخرى، وكُنَّ أربع عشرة امرأة، من بينهنّ فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ابنة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، زوجته، وجئن يحملن الطعام والماء على ظهورهنّ، ويسقين الجرحى ويداوينهم.

عن أمّ عطيَّة، نُسَيْبَة بنت الحارث الأنصاريّة، قالت: "غزوت مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سبع غزوات، أخلفهم في رحالهم، وأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى وأقوم على المرضى." [٣٧٥]

٣٧٣ــ للمزيد من المعلومات عن دور المرأة في المجتمع الإسلامي الأوّل، أنظر كتابنا باللغة الإنكليزية بعنوان: "نساء مسلمات مجاهدات".

٣٧٤ــ ابن قيِّم الجوزيّة، عدَّة الصابرين، ص ١٢٦.

٣٧٥ ــ صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية، بدون تاريخ، ج ١٢، ص ١٩٤، باب النساء الغازيات.

وعن أنس رضي الله عنه في حديث أحُد، قال: ولقد رأيت عائشة ابنة أبي بكر، وأم سُلَيْم، وإنّهما لمُشَمّرتان، أرى خدم (خلاخيل) سوقهما تنقلان القِرَب على متونهما، ثمّ تفرغانه في أفواه القوم، ثمّ ترجعان فتملآنها ثمّ تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم.

وعن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ، قالت: كنّا نغزو مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فنسقي القوم ونخدمهم، ونردّ الجرحى والقتلى إلى المدينة.[376]

قال كعب بن مالك: "رأيت أم سُلَيْم بنت ملحان وعائشة على ظهورهنّ القِرَب تحملانها يوم أحُد. وكانت حَمْنَة بنت جحش تسقي العطشى وتداوي الجرحى. وكانت أمّ أيْمَن تسقي الجرحى."[377]

وكانت أمُّ سليط ممّن شارك في معركة أحُد، ويروى: "أنّ عمر بن الخطاب قسم مَرَطاً[378] بين نساء أهل المدينة، فبقي منها مِرْط جيّد. فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين! أعطِ هذا ابنة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الّتي عندك ـ يريدون أمّ كلثوم بنت فاطمة بنت رسول الله ـ فقال عمر: أمّ سليط أحقُّ به. ـ قال: وأمّ سليط، امرأة من الأنصار، ممّن بايع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ـ قال عمر: فإنّها كانت تزفر[379] لنا القِرَبَ يوم أحد."[380]

إنّ دور النساء المسلمات في معركة أحُد لم يتوقف عند إسعاف الجرحى ومداواتهم وسقي الماء، بل تعدّاه إلى المشاركة الفعلية في القتال، كما روي عن عبد الله بن مسعود، قال: "إنّ النساء كُنَّ يوم أحُد خلف المسلمين يجهزن على جرحى المشركين."[381]

---

[376]ــ مسلم، الصحيح؛ ابن جماعة، مستند الأجناد في الات الجهاد، ص ٤٧.

[377]ــ الواقدي، المغازي، ج ١، ص ص ٢٤٩-٢٥٠؛ ابن كثير، البداية، م ٢، ج ٤، ص ص ٢٨-٢٩.

[378]ــ مَرَطاً = جمع مِرْط، وهو كلّ ثوب غير مخيط، أو كساء من صوف ونحوه.

[379]ــ تزفر القِرَب = تملؤها ماء وتنقلها الى المحاربين.

[380]ــ أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، ص ص ٣٠٨-٣٠٩.

[381]ــ ابن كثير، البداية، م ٢، ج ٤، ص ٤١.

إنّ بعض المسلمين المعاصرين يدَّعون: أنّ غزو النساء مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم، كان عمل آحاد، لا يعوَّل عليه كقاعدة عامّة يعمل بها. ولهؤلاء المعترضين نورد قول ابن عبّاس في ردّه على نجدة الحروري بشأن غزو الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالنساء، فقال: "كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يغزو بالنساء، فيداوين الجرحى ويُحْذَيْنَ من الغنيمة، وأمّا بسهم فلم يضرب لهنَّ."[٣٨٢]

نستدلّ من قول ابن عبّاس، أنّ غزو النساء مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تكرّر مّرات كثيرة، وفي عددٍ من الغزوات. ومن النساء من قاتل بالسيف والرمح والقوس والنشاب، ومنهن من عملن كممرّضات ومساعدات في أعمال أخرى لا غنى للمحاربين عنها.

لكنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم لم يفرض الجهاد على النساء، ولم يشجّعهنّ على الخروج في كل مرّة أردن الخروج معه إلى المعارك حتى لا يصبح خروج النساء إلى الحرب سُنَّة، كما نستدلّ من قصّة أم كبشة العُذْريّة، قالت: "يا رسول الله! إئذن لي أن أخرج في جيش كذا وكذا!

قال: لا.

فقلت: يا رسول الله! إئذن لي! ليس أريد أن أقاتل، إنّما أريد أن أداوي الجرحى، وأسقي المريض.

قال: (لَوْلا أَنْ تَكُونَ سُنَّةً، فَيُقَالُ: فُلانَةُ خَرَجَتْ، لأَذِنْتُ لَكِ، وَلَكِنْ إجْلِسِي!)[٣٨٣]

٣٨٢ـ صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٢، ص ١٩٠.

٣٨٣ـ ابن أبي عاصم، الآحاد والمثاني، تحقيق باسم الجوابرة، دار الراية، الرياض، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج ٦، ص ٢٤٣، ترجمة ٣٤٧٣.

جهاد نُسَيْبة بنت كعب (أُمُّ عُمارَة)

وأكثر من ذلك ما فعلته المجاهدة نُسَيْبَة بنت كعب، أمّ عُمارة التي شهدت أُحُداً هي وزوجها وابناها، وخرجت معها شَنٌّ (قِربة صغيرة) لها في أوّل النهار تريد أن تسقي الجرحى، فقاتلت يومئذٍ وأبلت بلاء حسناً، فجُرحت اثني عشر جُرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف.

فكانت أمّ سعد، بنت سعد بن الربيع، تقول: دخلت عليها، فقلت لها: يا خالة! حدّثيني خبرك!

فقالت: خرجت أوّل النهار إلى أُحُد، وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو في أصحابه، والدُّوْلة والرّيح للمسلمين، فلمّا انهزم المسلمون، انحزت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فجعلت أباشر القتال، وأذبُّ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالسيف وأرمي بالقوس، حتى خلصت إليَّ الجِراح.

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (لَمَقامُ نُسَيْبَةَ بِنْتِ كَعْبٍ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْ مَقام فُلانٍ وَفُلانٍ.)

وكان صلّى الله عليه وسلّم يراها تقاتل يومئذ أشدّ القتال، وإنّها لحاجزة ثوبها على وسطها، حتى جُرحت ثلاثة عشر جُرْحاً.[٣٨٤]

وأمّ عمارة رضي الله عنها وأرضاها كانت واحدة من النساء اللواتي اشتركن في البيعة التي بايعها أهل المدينة ليلة العقبة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل الهجرة، هذه البيعة التي عُرفت فيما بعد ببيعة النساء.

---

[٣٨٤] ـ الواقدي، المغازي، ج ١، ص ص ٢٦٨-٢٧٠؛ ابن كثير، البداية، م ٢، ج ٤، ص ٣٥.

وجهاد أمّ عمارة لم يتوقف عند معركة أحُد، بل تعدّاه إلى مواطن أخرى، مثل: الحديبية، حيث اشتركت في بيعة الرضوان، هذه البيعة التي مدح الله سبحانه وتعالى الذين شاركوا فيها بقوله: (لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَعَلِمَ ما في قُلُوبِهِمْ، فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً، وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها، وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً.) (الفتح ٤٨/١٨-١٩)

واشتركت أمّ عمارة في معركة خيبر.

إنّ جهاد أمّ عُمارة استمرّ طيلة حياة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ولم يتوَقّف حتى بعد موت الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فقد اشتركت في معركة اليمامة ضدّ مسيلمة الكذّاب، وفي تلك المعركة قُطِعت يدُها، ولمّا سئلت عن يدها ما أصابها؟ قالت: أصيبت يوم اليمامة لمّا جعلت الأعراب ينهزمون بالناس، نادت الأنصار: "أخْلِصونا!" فأخلصت الأنصار، فكنت معهم، حتى انتهينا إلى حديقة الموت، فاقتتلنا عليها ساعة، حتى قُتِلَ أبو دجانة على باب الحديقة، ودخلتها وأنا أريد عدوّ الله مسيلمة، فيعترض لي رجل منهم فضرب يدي، فقطعها، فوالله! ما كانت لي ناهية، ولا عَرَّجت عليها حتى وقفت على الخبيث مقتولاً، وابني عبد الله بن زيد المازني يمسح سيفه بثيابه. فقلت له: قتلته؟ قال: نعم. فسجدت شكراً لله.[٣٨٥]

---

[٣٨٥]ــ الواقدي، المغازي، ج ١، ص ٢٦٩.

جهاد النساء بصورة عامّة

سيِّدة صحابيّة أخرى جاهدت مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم، هي: أمّ سُلَيْم التي اتَّخذت يوم حنين خنجراً، فكان معها، فرآها أبو طلحة (زوجها) فقال: يا رسول الله! هذه أمّ سُلَيْم معها خنجر.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ما هذا الخنجر؟

قالت: اتَّخذته إن دنا منِّي أحد من المشركين بَقرْتُ به بطنَه. فجعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يضحك. قالت: يا رسول الله! أقتل من بعدنا من الطلقاء انهزموا بك. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: يا أمَّ سُلَيْم! إنّ الله قد كفى وأحسن.

وعن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يغزو بأمِّ سُلَيْم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء ويداوين الجرحى.[٣٨٦]

وفي رواية أخرى عن عبد الله بن أبي بكر، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم التفت يوم حنين، فرأى أمَّ سُلَيْم بنت ملحان - وكانت مع زوجها أبي طلحة - حازمة وسطها ببُرْد لها؛ وإنّها لحامل بعبد الله بن أبي طلحة، ومعها جمل أبي طلحة، وقد خَشِيَتْ أن يَعُزَّها (يغلبها) الجمل، فأدنت رأسه منها، فأدخلت يدها في خزامته مع الخِطام، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أمَّ سُلَيْم! قالت: نعم، بأبي أنت وأمّي يا رسول الله! اقتل هؤلاء الّذين يفرّون عنك كما تقتل هؤلاء الذين يقاتلونك، فإنّهم لذلك أهل. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أوَيكفي الله يا أمّ سُلَيْم! ومعها خنجر في يدها، فقال لها أبو طلحة: ما هذا معك يا أمَّ سُلَيْم؟ قالت: خنجر أخذته معي، إن دنا منّي أحد من المشركين بعجته به. قال: يقول أبو طلحة: ألا تسمع ما تقول أمّ سُلَيْم يا رسول الله![٣٨٧]

٣٨٦ـ صحيح مسلم بشرح النووي، ح ١٢، ص ص ١٨٧-١٨٨.

٣٨٧ـ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ص ٧٦-٧٧.

لقد أقام الرسول خيمة في مسجده لامرأة من أسلم يقال لها رُفَيْدة، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة مَنْ كانت به ضيعة من المسلمين.[٣٨٨]

بقي أن نعرف هنا أنّ رفيدة الأسلمية كانت أوّل ممرِّضة في التاريخ، وليس كما يدّعي الفرنسيون، أن أوّل ممرِّضة كانت من نسائهم. وفي هذا سبق عظيم للإسلام والمسلمين.

ليس هذا فقط، لقد ساهمت النساء المسلمات بالتبرُّع بحليِّهنَّ للمجهود الحربي، كما فعلن عند الإعداد لغزوة تبوك.

قالت أم سنان الأسلميّة: لقد رأيت ثوباً مبسوطاً بين يدي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في بيت عائشة فيه مَسَكَة (أساور) ومعاضد، وخلاخل، وأقرطة، وخواتيم، وخدمات (الخلاخيل) ممّا يبعث به النساء يُعِنَّ به المسلمين في جهازهم، والناس في عسرة شديدة.[٣٨٩]

إنّ النساء اللّواتي حاربن مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبعد ذلك، أيّام الخلفاء الراشدين، حاربن بكل شجاعة وإقدام، ولم يُعرَف عن أيّة واحدة منهنّ أنّها فرّت من المعركة، كما فعل كثير من الرجال في معركة أُحُد وحُنَيْن، كما تشهد كتب التاريخ والسِّيَر.

كذلك فإنّ هؤلاء النساء المجاهدات كنَّ على درجة عالية من التدريب العسكري، فالمرأة التي تدخل المعركة وتضرب بالسيف، وتطعن بالرمح، وتنزع بالقوْس، وتقتل الرجال، يجب أن تكون مدرَّبة تدريباً عسكريّاً على درجة عالية من الشجاعة والجرأة والإقدام، وفوق الكلّ عدم الخوف من الموت، فالمرأة المسلمة في عهد الرسالة طلبت إحدى الحسنَيَيْن: الشهادة أو النصر مثلها مثل أخوتها الرجال المؤمنين سواء بسواء.

٣٨٨ـ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٥٨٦.

٣٨٩ـ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١، ص ١٦٤.

واستمرّت النساء المسلمات المؤمنات يحاربن مع إخوتهنّ من الرجال المسلمين المجاهدين أيام الفتوحات الإسلامية وحروب المسلمين ضدّ الروم والفرس. ففي يوم اليرموك الخالد، كما روي عن أبي أمامة، وكان شهد معركة اليرموك: أنّ النساء قاتلن يوم اليرموك في جولة، فخرجت جويرية ابنة أبي سفيان في جولة، وكانت مع زوجها، وأصيبت بعد قتال شديد.[٣٩٠]

والسّيّدة أسماء بنت يزيد بن السّكَن، بنت عمّ مُعاذ بن جبل، قتلت يوم اليرموك سبعة من الرّوم بعمود فسطاطها (خيمتها).[٣٩١]

ويوم اليرموك أجلس أبو سفيان النساء اللواتي مع المسلمين. وكان كثير من المهاجرات قد حضرن يومئذٍ مع أزواجهنّ وأبنائهنّ. خلف صفوف المسلمين، وأمر بالحجارة فألقيت بين أيديهنّ، ثمّ قال لهن: لا يرجع إليكنّ أحد من المسلمين إلاّ رميتنّه بهذه الحجارة، وقلتنّ: من يرجوكم بعد الفرار عن الإسلام وأهله وعن النساء بأرض العدوّ؟ فاللهَ! اللهَ![٣٩٢]

لم يستطع المسلمون تحمُّل هجوم الروم الشديد عليهم فتراجع قسم كبير منهم، واستقبل النساء سُرْعان من انهزم من المسلمين، معهنّ عُمُد البيوت وأخذن يضربن وجوههم ويرمين بالحجارة، فترادَّ الناس وثبت النساء على مواقفهنَّ.[٣٩٣]

ومرّة أخرى تقهقر المسلمون حتى دخل الروم معهم العسكر، فاستقبلهم نساء المسلمين بعمد الفساطيط (الخيام) يضربن بها وجوههم ويرمينهم بالحجارة، ويقلن: أين عزُّ الإسلام والأمّهات والأزواج؟ فتعطّف هؤلاء الذين انهزموا إلى المسلمين.[٣٩٤]

٣٩٠ـ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٠١.

٣٩١ـ ابن أبي عاصم، الآحاد والمثاني،ج٦، ص ١٢٨، ترجمة ١١٤٩.

٣٩٢ـ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١، ص ٢١٦.

٣٩٣ـ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١، ص ٢١٨.

٣٩٤ـ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١، ص ٢١٩.

كرّة أخرى ارتدَّ المسلمون إلى الوراء، في هذه المرّة نزلت النساء من التلّ حيث أوقفهنّ أبو سفيان قبل بدء المعركة بعمدهنّ يضربن وجوه الرجال ونادت الناسَ ابنةُ العاص وقالت: قبَّحَ اللهَ رجلاً يفرُّ عن حليلته، وقبَّحَ اللهُ رجلاً يفرُّ عن كريمته، قالوا: وسُمِعَ نسوة من نساء المسلمين يقلن: ولستم بعولتنا إن لم تمنعونا. فترادَّ المسلمون حتى عادوا إلى قريب من موقفهم.[٣٩٥]

أمّا النساء المسلمات اللواتي رافقن أزواجهنّ وأبناءهنّ في حربهم مع الفرس، فلم يكنَّ أقلَّ شجاعة من أخواتهنّ المسلمات في اليرموك، ولقد رُوِيَ: أنّ المثنّى وعصمة وجرير أصابوا في أيام البُوَيْب على الظهر نُزْل مِهران غنماً ودقيقاً وبقراً، فبعثوا بها إلى عيالات مَن قدِمَ من المدينة وقد خلّفوهنَّ بالقوادس، وإلى عيالات أهل الأيام قبلهم، وهم بالحيرة. وكان دليل الذين ذهبوا بنصيب العيالات الذين بالقوادس عمرو بن عبد المسيح بن بُقَيْلة، فلمّا رُفِعوا للنّسوة، فرأين الخيل، تصايحن وحسبنها غارةً، فقُمْنَ دون الصبيان بالحجارة والعُمُد، فقال عمرو: هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش! وبَشّروهنَّ بالفتح، وقالوا: هذا أوّله، وعلى الخيل التي أتتهم بالنزل النُسَيْر، وأقام في خيله حامية لهم.[٣٩٦]

وهذه مجموعة من النساء المسلمات نصرن بحصافتهنَّ وحسن تصرّفهنّ جيشاً من جيوش المسلمين الّذين كانوا يحاربون الفُرْس، دون أن تضرب إحداهنَّ بسيف أو ترمي بسهم أو تطعن برمح.
"لمّا جمع أهل ميسان للمسلمين، سار إليهم المغيرة بن شعبة، وخلّف الأثقال، فلقي العدوَّ دون دجلة. فقالت أردة بنت الحارث بن كَلَدَة: لو لحقنا بالمسلمين، فكُنّا معهم. فاعتقدت لواء من خِمارها، واتَّخذ النساء من خُمُرِهِنَّ رايات، وخرجن يُردن المسلمين، فانتهين إليهم والمشركون يقاتلونهم، فلمّا رأى المشركون الرّايات مقبلة، ظنُّوا أنَّ مَدَداً أتى المسلمين، فانكشفوا، واتَّبعهم المسلمون، فقتلوا منهم عِدَّةً."[٣٩٧]

٣٩٥ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١، ص ٢١٩.
٣٩٦ــ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٦٩.
٣٩٧ــ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٩٦.

وعندما أذلَّ الجبابرة من السلاطين رجال المسلمين حتى لم يستطيعوا أن يرفعوا رأسا، ويأمروا بمعروف أو ينهوا عن منكر قامت النساء للدّفاع عن الحقّ متحدّيات السلطان، مثل ما حدث أيّام المنصور، الخليفة العبّاسي.

"لمّا صار أبو جعفر المنصور الخليفة إلى الرَّقَّة، دعا بعبد الله بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، فضرب عنقه، وصلبه.

وكانت امرأة عبد الله بن معاوية، صفيَّة ابنة إسحاق بن مسلم العقيلي. فلمّا فُعِلَ ذلك بزوجها، أتت أباها إسحاق بن مسلم ـ وكانت له من أبي جعفر ناحية، وكان من خاصّته ـ فقالت: يا أبة! قد فعل بصهرك ما ترى، وإنّه يسمج بك أن يمرَّ المارُّ، فيرى سوءته على الخشبة بادية. فقال لها: تريدين ماذا؟ قالت: تكلّم أبا جعفر يهبه لك فننزله وندفنه. قال: ما لي إلى ذلك سبيل. قال: فلمّا أبى عليها، وجَنَّها الليل، أخذت جواريها وكساء خَزٍّ، ثمّ أتت الخشبة، فوضعتها بالأرض، ثمّ أخذته فأدرجته في الكساء، ثمّ حملته جواريها حتى أتت به منزلها، فحفرت له تحت فراشها، ثمّ دفنته، وردَّت الفراش إلى مكانه.

فلمّا أصبح أبو جعفر وفُقِدَ عبدُ الله، قيل له فيه، وأُخْبِرَ بذهابه. فجمع أبو جعفر وجوه أهل الرَّقَّة وأشرافهم، ثمّ أعطى الله عهداً لئن لم تجيئوني بخبر عبد الله بن معاوية لأضربنَّ رقابكم.

قال: وجعل جُلَّ نظره وكلامه إلى إسحاق بن مسلم، فخرجوا من عنده وقد طارت عقولهم، فأتى إسحاق بن مسلم ابنته، فقال: أي بُنَيَّة! إنه كان من أمر أبي جعفر كيت وكيت، وقد حمل عليَّ من بينهم، واتّهمني لصهره إيّاي، فهل عندك له خبر؟ فقالت: أما إنّه لو كان حيّاً لأجابك، ولو أنّ روحه في جسده لسمع كلامك، هو تحت الفراش، وأخبرته خبره والّذي صنعت، فلمّا كان من الغد دعا أشراف أهل الرَّقَّة، ولا يشُكُّون في القتل.

فلمّا دخلوا عليه، جثا إسحاق بن مسلم بين يدي أبي جعفر، فأخبره خبره، وبما صنعت ابنته. فلمّا فهم قوله قلب وجهه عنه، وصرف حديثه إلى غيره، وتركه وأصحابه، ولم يعرض لعبد الله ولا لامرأته."[٣٩٨]

٣٩٨ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١١، ص ١٢.

صبر النّساء على فَقْد الأقارب

وفجعت بعض النساء بأقاربهنّ في معركة أحُد وغيرها من المعارك، فتحمّلن المُصيبة بصبر وثبات، وروي عن صبرهنّ وتحملهنّ ألم المصاب الشيء الكثير.

عن سعد بن أبي وقاص، قال: "مرَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها، وأخوها، وأبوها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأُحُد، فلمّا نُعُوا إليها، قالت: ما فعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ قالوا: خيراً يا أمَّ فلان، هو بحمد الله كما تحبّين. قالت: أرونيهِ حتى أنظر إليه. قال: فأشير لها إليه، حتى إذا رأته، قالت: كل مصيبة بعدك جَلَل (أي هيِّنة)."[٣٩٩]

وهذه صفيّة بنت عبد المطلب، عمّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تحتسب أخاها حمزة، أسد الله ورسوله، عند الله، كما روى ابن إسحاق: "وقد أقبلت صَفِيّة بنت عبد المطلب لتنظر إليه (إلى حمزة)، وكان أخاها لأبيها وأمّها.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لابنها الزُّبَيْر بن العوّام: إلْقها! فأرجعها! لا ترى ما بأخيها.

فقال: يا أمَّه! إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يأمرك أن ترجعي.

قالت: ولِمَ؟ وقد بلغني أنّه مُثِّلَ بأخي، وذلك في الله، ما أرضانا ما كان من ذلك. لأحتسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله.

فلمّا جاء الزبير إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأخبره بذلك.

فقال: خَلِّ سبيلها.

فأتته، فنظرت إليه، وصلّت عليه، واسترجعت، واستغفرت."[٤٠٠]

٣٩٩ــ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٥٣٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٢، ج ٤، ص ٤٨.

٤٠٠ــ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٢، ج ٤، ص ٤٣.

وهذه هند بنت عمرو بن حرام ضربت المثل الأعلى في الصبر وتحمُّل المصيبة والفجيعة في زوجها، وابنها، وأخيها الّذين استشهدوا يوم أحُد. وروي أنّ عائشة أمّ المؤمنين، زوج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لقيت هند بنت عمرو بن حرام، أخت عبد الله بن عمرو بن حرام تسوق بعيراً لها، عليه زوجها، عمرو بن الجَموح، وابنها خلاد بن عمرو، وأخوها عبد الله بن حرام، أبو جابر...

فقالت عائشة: عندك الخبر، فما وراءك؟

فقالت هند: خيراً؛ أمّا رسول الله فصالح، وكلّ مصيبة بعده جَلَل (هيِّنة).

قالت: مَن هؤلاء؟

فقالت: أخي، وابني خلاد، وزوجي عمرو بن الجموح.

قالت: فأين تذهبين بهم؟

قالت: إلى المدينة أقبرهم فيها.

ولمّا رآها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومعها الشهداء الثلاثة، قال: يا هند! مازالت الملائكة مُظِلّة على أخيك من لَدُن قُتِل إلى الساعة ينظرون أين يدفن. ثمّ مكث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى قبرهم، ثمّ قال: يا هند! قد ترافقوا في الجنّة جميعاً، عمرو بن الجموح، وابنك خلاد، وأخوك عبد الله.

فقالت هند: التي فُجِعت بزوجها، وأخيها، وابنها في يوم واحد بهدوء المرأة المسلمة، المؤمنة، الصابرة، المحتسبة: يا رسول الله! أدْعُ الله، عسى أن يجعلني معهم.[٤٠١]

ليس الصحابيات من المسلمات فقط هنّ اللواتي صبرن على مصيبة فقد الأحبّة من الأخوة والأبناء والأزواج واحتسبن مصيبتهنّ عند الله، بل المسلمات من جيل التابعين وتابعي التابعين أيضاً صبرن وتحملن ألم المصيبة بالرضاء والتسليم لقضاء الله سبحانه وتعالى.

---

[٤٠١] ـ الواقدي، المغازي، ج ١، ص ص ٢٦٥-٢٦٦.

هذه مُعاذة العدويّة العابدة، لمّا استُشْهِدَ زوجها صِلَة بن أشْيَم وابنها في بعض الحروب، اجتمع النساءُ عندها، فقالت: "مرحباً بكُنَّ، إن كنتنَّ جئتنَّ للهناء، وإن كنتنَّ جئتنَّ لغير ذلك فارجعن!"

وكانت تقول: "والله! ما أحبّ البقاء إلاّ لأتقرّب إلى ربّي بالوسائل، لعلّه يجمع بيني وبين أبي الشعثاء (زوجها) وابنه في الجنّة."[٤٠٢]

أمّا الخنساء بنت عمرو بن الشريد السُّلَمِيَّة، الشاعرة المشهورة، حضرت حربَ القادسيّة ومعها بنوها أربعة رجال، فقالت لهم من أوّل اللّيل: "يا بَنِيَّ إنَّكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مُختارين، ووالله الّذي لا إلهَ إلاّ هو! إنَّكم لَبَنُو رجلٍ واحد، كما أنَّكم بنو امرأة واحدة، ما خُنْتُ أباكم، ولا فَضَحْتُ خالَكم، ولا هَجَّنْتُ حسبكم، ولا غَيَّرْتُ نسبكم.

وقد تعلمون ما أعدَّ اللهُ للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين.

واعلموا أنّ الدّار الباقية خَيْرٌ من الدّار الفانية، يقول الله تعالى: (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.) (آل عمران ٣/ ٢٠٠)

فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدو إلى قتال عدوّكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شَمَّرَتْ عن ساقها، واضطرمت لَظىً على سِياقها، وجَلَّلَتْ ناراً على أوراقها، فتَيَمَّموا وَطِيسَها، وجالدوا رئيسَها عند احتدام خَميسها، تَظفروا بالغُنْم والكرامة في دار الخُلْدِ والمُقامَة."

فخرج بنوها قابلين لِنُصْحِها، عازمين على قولها. فلمّا أضاء الصّبح باكَروا مَراكزهم، وتقدَّموا إلى القتال، فقاتلوا حتّى قُتِلوا جميعاً، الواحد تِلْوَ الآخر، رضي الله عنهم أجمعين.

فبلغها الخبر، فقالت: "الحمدللهِ الّذي شَرَّفني بقتلهم، وأرجو من رَبِّي أن يجمعني بهم في مُسْتَقَرَ رحمته."

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُعطي الخَنساء أرزاق أولادها الأربعة لكلّ واحد مائتي درهم حتى قُبضَ رضي الله عنه."[٤٠٣]

---

٤٠٢ ــ الذهبي، سيَر أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٥٠٩.

قصة مشابهة لقصة الخنساء حدثت لامرأة من النَّخع لها بنون أربعة شهدوا القادسية، كما روى الشعبي: "كانت امرأة من النخع لها بنون أربعة شهدوا القادسية، فقالت لبنيها: (إنكم أسلمتم فلم تُبَدِّلوا، وهاجرتم فلم تَثُوبُوا، ولم تَنْبُ بكم البلاد، ولم تُقْحِمكم السَّنَة. ثمَّ جئتم بأمكم عجوز كبيرة، فوضعتموها بين يدي أهل فارس. واللهِ! إنكم لبنو رجل واحد، كما أنَّكم بنو امرأة واحدة، ما خُنْتُ أباكم، ولا فضحت خالكم. انطلقوا! فاشهدوا أول القتال وآخره.)

فأقبلوا يشتدُّون، فلما غابوا عنها، رفعت يديها إلى السماء وهي تقول: (اللَّهُمَّ! ادفع عن بَنِيَّ!)

فرجعوا إليها، وقد أحسنوا القتال؛ ما كُلِمَ (جُرِحَ) منهم رجلاً كَلْمًا. فرأيتهم بعد ذلك يأخذون ألفين ألفين من العطاء، ثمَّ يأتون أمَّهم، فيُلْقُونه في حجرها، فتردُّ عليهم وتقسمه فيهم على ما يُصلحهم ويُرضيهم."[٤٠٤]

روي أنّ إخوة ثلاثة شهدوا يوم تُسْتَر (في بلاد الفَرْس)، فاستُشْهدوا، فخرجت أمُّهم يوماً إلى السُّوق لبعض شأنها، فتلقّاها رجل حضر تُسْتَر، فعرفته، فسألته عن أمور بَنِيها، فقال: استُشْهدوا.

فقالت: مُقْبِلِينَ أو مُدْبِرين؟

فقال: مُقْبِلين.

قالت: الحمد للهِ! نالوا الفَوْز، وحاطوا الذِّمار، بنفسي هم وأبي وأمِّي.[٤٠٥]

انظروا إلى هاتين الوالِدَتَين، الخنساء، والمرأة المجهولة، إنّهما لم تبكيا، ولم تندبا، ولم تخمشا وجهيهما، ولم تشدَّا شعرهما، ولا مزَّقتا ملابسهما، بل تلقَّتا نبأ استشهاد أولادهما بكل هدوء وتسليم لقضاء الله سبحانه وتعالى.

---

[٤٠٣] ــ ابن عبد البرّ، الإستيعاب، تحقيق محمد علي البجاوي، نهضة مصر، القاهرة، ق ٤، ص ص ١٨٢٨-١٨٢٩.

[٤٠٤] ــ الطبري، تاريخ، م ٣، ص ٥٤٤.

[٤٠٥] ــ النووي، الأذكار، تحقيق سُبَيْع حمزة حاكمي، دار القبلة، جدّة، ١٤١٣هـ/١٩٩١م، ص ٢١٤.

أتُرى أنَّهما لم تُحِبّا أولادهما؟ حاشا وكلاّ! إنّهما أحبَّتا أولادهما حبّاً عظيماً مثل كلِّ أمٍّ في الدنيا، ولكنّهما فرحتا باستشهاد أولادهما في سبيل الله، لأنّ للشهيد أجراً عظيماً عند الله، والشهيد كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (ألشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته.)[406]

وهذه أمٌّ أخرى استُشْهِد ابنها في بدر، كما روي عن أنس رضي الله عنه، أنَّ أمَّ الرُّبَيِّع بنت البراء رضي الله عنها، وهي أمّ حارثة بن سُراقة أتَتِ النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم، فقالت: يا رسول الله! ألا تحدّثني عن حارثة، وكان قُتِلَ يوم بدر، فإن كان في الجنّة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه بالبكاء!
فقال: (يا أمَّ حارثةَ! إنَّها جِنانٌ في الْجَنَّةِ، وإنَّ ابْنَكِ قدْ أصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأعْلَى.)[407]
ما أجمل ما عزَّى به الرسولُ الكريمُ صلّى الله عليه وسلّم تلك الوالدة الثكلى التي فقدت ابنها الشاب في المعركة، لأنّ الفوز بالجنة أعلى درجات الفوز، كما أخبرنا الله تعالى، وكما أخبرنا الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم.

وعن مسروق رضي الله عنه، قال: سألنا عبدَ الله عن هذه الآية: (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ أمْواتاً، بَلْ أحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ؟)
فقال: أمَا أنّا فقد سألنا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: (أرْواحُهُمْ في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَها قناديلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شاءَتْ، ثُمَّ تَأوي إلى تِلْكَ الْقَنادِيلِ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلاعَةً، فقالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئاً؟ قالوا: أيُّ شَيْءٍ نَشْتَهِي، ونَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنا؟
فَفَعَلَ ذلِكَ بِهِمْ ثَلاثَ مَرّاتٍ. فَلَمّا رَأوْا أنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أنْ يُسْألُوا. قالُوا: يا رَبُّ! نُرِيدُ أنْ تُرَدَّ أرْواحُنا في أجْسادِنا حَتَّى نُقْتَلَ في سَبِيلِكَ مَرَّةً أخْرَى. فَلَمّا رَأى أنْ لَيْسَ لَهُمْ حاجَةٌ تُرِكُوا.)[408]

---

[406]ـ أبو داوود، سنن، جهاد ٢٦؛ وابن حبّان؛ أنظر المنذري، الترغيب والترهيب، ج ٢، ص ٣١٦، باب الترغيب في الشهادة، حديث ١٩.

[407]ـ رواه البخاري؛ أنظر المنذري، الترغيب والترهيب، ج ٢، ص ٣٢٥، فضل الجهاد والشهداء، حديث ٣٨؛ وانظر النووي، رياض الصالحين، ص٥٠٨، حديث ١٣١٧.

أليس هذا ما تفعله أمهات، وأخوات، وجدَّات، وعمات، وخالات الشهداء في فلسطين، والعراق، ولبنان، وأفغانستان، والشيشان، وفي كل مكان في الدنيا حيث يسقط المسلمون شهداء ليل نهار؟

إن شعلة الإيمان مازالت تنير الطريق لقوافل الشهداء وعائلاتهم الثكلى.

٤٠٨ـ رواه مسلم واللفظ له، والترمذي وغيرهما؛ أنظر المنذري، الترغيب والترهيب، ج ٢، ص ٣٢٦- ٣٢٧، باب الترغيب في الشهادة، حديث ٤٣.

شجاعة الشيخ الأعرج

ولنرجع إلى حديث معركة أحد وقصة هند بنت عمرو بن حرام بعد هذا الاستطراد الطويل.

إنّ هنداً لا تَقِلُّ شجاعة ولا تضحية عن أخيها، وابنها، وزوجها، عمرو بن الجموح، الذي كان شيخاً أعرج. فلمّا كان يوم أُحُد. وكان له بنون أربعة يشهدون مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم المشاهد مثل الأُسْد. أراد بنوه أن يحبسوه، وقالوا: أنت رجل أعرج، ولا حرج عليك، وقد ذهب بنوك مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. قال: بَخٍ! يذهبون إلى الجنَّة وأجلس أنا عندكم! فقالت امرأته هند بنت عمرو بن حرام: كأنّي أنظر إليه مُولّياً، قد أخذ درقته، يقول: أَللّهُمَّ! لا تردّني إلى أهلي خَزِيّاً! فخرج، ولحقه بنوه يكلّمونه في القعود، فأتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: يا رسول الله! إنَّ بَنِيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك. والله! إنّي لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنّة. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أمّا أنت فقد عذرك الله تعالى، ولا جهاد عليك. فأبى. فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لبنيه: لا عليكم أن تمنعوه، لعلّ الله يرزقه الشهادة.

فخَلّوا عنه، فقُتِل يومئذ شهيداً.

فقال أبو طلحة: نظرت إلى عمرو بن الجموح حين انكشف المسلمون، ثمّ ثابوا وهو في الرَّعيل الأوّل. لكأنّي أنظر إلى ضَلَعه (عَرَجه) في رجله، يقول: أنا والله مشتاق إلى الجنّة! ثم أنظر إلى ابنه يعدو في إثره حتى قُتِلا جميعاً.[٤٠٩]

٤٠٩ ـ الواقدي، المغازي، ج ١، ص ص ٢٦٤-٢٦٥.

شعلة الإيمان وحُبُّ الموت

إنّ المسلمين الأوائل اتَّخذوا من الموت صناعة أتقنوها أيّما إتقان، لم يعرف عن أمّة أتقنت صناعة الموت في سبيل الله خيراً من الجيل المسلم الأوّل الذي تربّى على الإيمان والتقوى تحت سمع وبصر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، المربّي والمعلّم الأوّل بعد الله سبحانه وتعالى، الذي يُروى عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: (أدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبي)، وهو بدوره صلّى الله عليه وسلّم أدَّبَ أتباعه من المسلمين، عملاً بهدي القرآن الكريم، فأحسن تأديبهم بتربيتهم على الإيمان والتضحية وإنكار الذّات، على المبدأ القرآني الذي يقول: (كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ، وَإنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّار وأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فقدْ فازَ، وَما الْحَياةُ الدُّنْيا إلاّ مَتاعُ الْغُرُور.) (آل عمران ٣/١٨٥)

إنّ الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم علّم أتباعه من المسلمين، أنّه لا مفرّ من الموت، إذ مهما طال عمر الإنسان ومهما فرَّ من الموت، فإنّ الموت حتماً ملاقيه، كما ورد في القرآن الكريم: (قُلْ إنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإنَّهُ مُلاقِيكُمْ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ، فَيُنَبِّئُكُمْ بما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.) (الجمعة ٦٢/٨)

كذلك لا يوجد أي شيء في الدنيا مهما كان قويًّا ومحصنًا يردُّ الموت عن الإنسان، كما قال الله تعالى: (أيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ، وَلَوْ كُنْتُمْ في بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ...) (النساء ٤/٧٨)

وضرب الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم المثل الأعلى للمسلمين في كلّ زمان ومكان في الشجاعة والإقدام على الموت دون خوف أو وجل، كما تخبرنا كتب التاريخ والسِّيَر، خاصَّة في معركة أُحُد عندما فرَّ كثير من المسلمين من المعركة، ثبت صلّى الله عليه وسلّم في قلّة من أصحابه، وفي معركة حُنَيْن أيضاً عندما فرَّ كثير من المسلمين عنه، ثبت في قلّة قليلة من أصحابه، وحوّل الهزيمة إلى نصر بثباته وعدم خوفه من الموت.

وتمثَّل المسلمون الأوائل من الصحابة والتابعين بالرسول الشجاع صلّى الله عليه وسلّم وهجموا على الموت قبل أن يهجم عليهم، فنالوا الشهادة، ومن ثمَّ الجنَّة.
مثال على ذلك، ما قاله رجل للنبيِّ صلّى الله عليه وسلّم يوم أُحُد: أرَأيت إنْ قُتِلْتُ، فأين أنا؟ قال: في الجَنَّة. فألقى تمرات في يده، ثمّ قاتَل حتى قُتِلَ.[410]
وعمل هذا الرجل شبيه بعمل عمير بن الحمام الذي مرَّ معنا في معركة بدر، رضي الله عنهما وأرضاهما.

إنَّ شعلة الإيمان وحبّ الموت في سبيل الله لازَمـا المسلمين الأوائل في جميع حروبهم مع عدوّهم على جميع المستويات.
فهذا زيد بن الدَّثِنَة عندما أخرجه مشركو مكَّة من الحرم إلى التنعيم (خارج حدود حرم مكَّة) ليقتلوه، قال له أبو سفيان حين قُدِّمَ ليُقتَل: أنشدك بالله يا زيد!! أتحبُّ أنّ محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنَّك في أهلك؟
قال: والله! ما أحبُّ أنَّ محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإنّي جالس في أهلي.[411]
وهذا الخبر يروى عن خُبَيْب بن عَدِيّ، وهو القائل حين قُدِّمَ ليُصْلَب:

وَلَسْتُ أبالي حينَ أُقتَلُ مُسْلِماً   على أيِّ جَنْبٍ كانَ مَصْرَعِي

وهو أول من سنَّ الركعتين عند القتل.
وقال له أبو سفيان بن حرب: أيَسرُّك ـ يا خُبَيْب ـ أنّ محمداً عندنا بمكة تُضْرَب عنقه، وأنَّك سالم في أهلك؟
فقال: والله! ما يسرُّني أنّي سالم في أهلي، وأن يصيب محمداً شوكةٌ تؤذيه.[412]
وذُكِر أنَّهم لمّا رفعوا خبيباً على الخشبة نادوه يناشدونه: أتُحِبُّ أنّ محمّدًا مكانك؟
قال: لا والله العظيم! ما أحبُّ أن يفديني بشوكة يُشاكُها في قدمه. فضحكوا منه.[413]

---

[410] ـ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٢، ج ٤، ص ٣٠.
[411] ـ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٢، ج ٤، ص ٦٧.
[412] ـ ابن عبد البر، الدُّرَر في اختصار المغازي والسِّيَر، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص ١٦٩.

فلنستمع إلى عامر بن فهيرة[٤١٤] يعبِّر عن فرحته وسروره بنيل الشهادة وهو يموت من طعنة برمح، ممّا أدّى إلى إسلام قاتله. وهل هناك أعظم من رجل يدعو قاتله إلى الإسلام بعد موته؟ "عامر بن فهيرة من أوّل أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأفضلهم، استُشْهد ببئر معونة، وكان الّذي قتله جبار بن سُلمى الكلابي، ذكر أنّه لمّا طعنه بالرمح، قال: سمعته يقول: فُزْتُ والله! قال: فقلت في نفسي: ما قوله: "فُزْتُ"؟ قال: فأتيت الضحّاك بن سفيان الكلابي، فأخبرته بما كان، وسألته عن قوله: "فُزْتُ". فقال: يعني بالجنّة. فقال: صدق والله!
قال: فعرض عليَّ الإسلام. قال: فأسلمت. ودعاني إلى الإسلام ما رأيت من مقتل عامر بن فهيرة."[٤١٥]

لقد سعى المسلمون من الرَّعيل الأوّل إلى الموت بكلّ ترحاب، لا يخافون منه ولا يهابونه، فهذا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، كانت درعه صدراً لا ظهر لها. فقيل له: لو جعلت لها ظهراً! فقال: إذا وَلَّيْتُ ظهري، فلا وَأَلَتْ نفسي.[٤١٦]
وفي رواية أخرى: "كانت درع عليٍّ رضي الله عنه صدراً لا ظهر لها، فقيل له في ذلك. فقال: إذا استمكن عَدُوِّي من ظهري، فلا يُبْق."[٤١٧]

وحُكِيَ عنه رضي الله عنه، أنّه قال: "ما أبالي وقعت في الموت، أو وقع الموتُ عَلَيَّ."[٤١٨]

وكتب خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه من دُومة الجندل يستأمره في أمر العدوّ. فوَقَّعَ إليه: "أَدْنُ من الموتِ تُوهَبْ لك الحياة."[٤١٩]

٤١٣ــ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٢، ج ٤، ص ٦٨.

٤١٤ــ هذه القصة تنسب الى حرام بن ملحان.

٤١٥ــ الواقدي، المغازي، ج ١، ص ٣٤٩؛ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٥٤٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٢، ج ٤، ص ٧٤.

٤١٦ــ الزوزني، حماسة الظرفاء، ج ١، ص ٨١. وألت = نجت.

٤١٧ــ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ١٣١.

٤١٨ــ البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص ٤٨٣.

ولنستمع إلى عوف بن الحارث، وهو ابن عفراء، ذلك المسلم الذي أراد أن يَسُرَّ ربَّه ويضحكه يوم بدر، فسأل رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم: "يا رسول الله! ما يُضْحِكُ الرَّبَّ من عبده؟ قال: غمسه يده في العدوّ حاسراً. فنزع درعاً كانت عليه، فقذفها، ثمّ أخذ سيفه، فقاتل، حتى قُتِلَ، رضي الله عنه وأرضاه." [٤٢٠]

وهذا خالد بن الوليد، سيف الله المسلول، يخيف أعداء الله وأعداء المسلمين ليس بسلاح المسلمين الفتّاك وجودته وكثرته، بل بحبّ المسلمين للموت، حيث قال لقبيصة بن إياس بن حيّة الطائي، أمير الحيرة وأصحابه: "أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام! فإن أجبتم إليه، فأنتم من المسلمين، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم. فإن أبيتم، فالجزية. فإن أبيتم الجزية، فقد أتيتكم بأقوامٍ هم أحرص على الموت منكم على الحياة. جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم." [٤٢١]

إنّ كثرة العدوّ الزائدة على عدد جيش المسلمين أضعافاً مضاعفة، بالإضافة إلى العدّة والسلاح، لم تُخِف القائد المسلم المؤمن، خالد بن الوليد، سيف الله المسلول رضي الله عنه وأرضاه، عندما قال له رجل يوم اليرموك: ما أكثر الرّوم، وأقلّ المسلمين! قال خالد: ما أقلّ الرّوم، وأكثر المسلمين! إنّما تكثر الجنود بالنصر، وتقلّ بالخذلان، لا بعدد الرجال. والله! لوَدِدت أنّ الأشقر (حصانه) براء من توجِّيه، وأنّهم أضعفوا في العدد - وكان فرسه قد حَفِيَ في مسيره من العراق إلى الشام. [٤٢٢]

ولنستمع إلى البطل خالد بن الوليد، سيف الله المسلول، رضي الله عنه وأرضاه على فراش موته يتأسّف ويتحسّر إذ لم يمت في ميدان الجهاد: "لقد لقيتُ كذا وكذا زحفاً. وما في جسدي موضع شبر إلاّ وفيه طعنة أو ضربة أو رمية، ثمّ ها أنا أموت على فراشي حَتْفَ أَنْفِي، فلا نامت أعْيُنُ الجُبَناءِ." [٤٢٣]

٤١٩ـ ابن عبد البر، بهجة المجالس، ج ١، ص ٤٦٦؛ الثعالبي، خاص الخاص، ص ٨٦.

٤٢٠ـ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٢، ج ٣، ص ٢٧١.

٤٢١ـ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ص ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٦٤، ٣٧٠.

٤٢٢ـ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ص ٣٩٧-٣٩٨.

٤٢٣ـ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ١٦٥.

وفي رواية أخرى، أنّ خالد بن الوليد لمّا احتُضِرَ بكى، وقال: "القيت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي شبر إلاّ وفيه ضربةٌ بسيف، أو رميةٌ بسهم، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العَيْر، فلا نامت أعين الجبناء."[424]

لقد أسف سيف الله المسلول على أن فاته الموت في ساحة الوغى وميدان الجهاد وأدركه على فراشه.

هذا غيض من فيض من أمثلة التضحية بالنفس في سبيل الله التي مارسها المسلمون الأوائل الّذين نصروا الله فنصرهم وثبّتَ أقدامهم وجعلهم الأعْلَيْن. سُنّة الله التي سنَّ لعباده المؤمنين في كتابه الكريم، وهي، أنّ الله سبحانه وتعالى كلّ ما وعد عباده وعداً وضع عليهم شرطاً، وإيفاء الوعد من الله مرهون بتنفيذ الشرط من قِبَل الناس، فعلى سبيل المثال قول الله تعالى: (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا! إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أقدامَكُمْ) (محمد ٧/٤٧)

وقوله عزَّ وجَلَّ: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ.) (الحج ٤٠/٢٢)

وقال سبحانه وتعالى أيضاً: (قُلْ لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ، وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ.) (آل عمران ٩٢/٣)

والمسلمون الأوائل من المهاجرين والأنصار نصروا الله ورسوله، فنصرهم اللهُ نصراً مؤَزَّراً، وأيَّدهم بجنود من عنده في مواطن كثيرة، كذلك أنفقوا بسخاء ممّا يحبّون في سبيل الله، فأعطاهم الله من البرِّ ما لا رأته عين ولا سمعت به أذن ولا خطر على قلب بشر. أعطاهم جَلَّ وعلا الذِّكْرَ الحسن في الدّنيا، والجنَّة في الآخرة، كما قال سبحانه: (سَابِقُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالأرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ، ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.) (الحديد ٢١/٥٧)

---

[424]_ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١، ص ٣٨٢؛ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ٨، ص ٢٦.

ومثل هذه الآيات كثير في القرآن الكريم يجب على كلّ مسلم يتلو ويدرس كتاب الله أن ينتبه لها ليحسن حاله ومن ثمَّ يحسن حال الأمّة الإسلاميّة جمعاء.

وعندما يعلم المسلم علم اليقين، أنّ الموت حقٌّ لا مفرَّ منه كما بيّنا من قبل، فإنّه يُضَحِّي بروحه في سبيل الله عن طيبة خاطر.

إنّ الدخول في معركة والقتال في سبيل الله لا يقرِّب أجلاً ولا يؤخّره، لأنّ الله تعالى قال: (وَلِكُلِّ أمَّةٍ أجَلٌ، فإذا جاءَ أجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ) (الأعراف ٣٤/٧؛ يونس ٤٩/١٠)

إذ لو أنّ كلّ ما دخل إنسان معركة قُتِلَ لما بقي أحد من الصّحابة حيّاً، حتى ولا الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم الذي قاد عدداً كبيراً من الغزوات والمعارك بنفسه الشريفة، لأنّ الآجال لا تأتي إلاّ في حينها كما قدّمنا قبل قليل.

شجاعة القائد وصموده:
شجاعة النبيّ (ص)

إنّ الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم كان من أشجع الناس وأكثرهم إقداماً على الموت.

قال البيهقي: "لم نجد شجاعاً قطّ إلاّ وقد فرَّ، مثل عامر فرَّ عن أخيه الحكم يوم الرَّقم، وعُيَيْنة فرَّ عن أبيه يوم نِسار، وبسطام عن قومه يوم العُظالى. وكان له صلّى الله عليه وسلّم وقائع مثل أُحُد وحُنَيْن وغيرهما، فلا يستطيع منافق أن يقول هاب حرباً أو خاف."[٤٢٥]

روي عن عليّ بن أبي طالب، قال: "كُنّا إذا حَمِيَ البأس ولقي القوم اتَّقينا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم."[٤٢٦]

وضرب الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم أروع مثال للشجاعة والبطولة وأعلاه عندما فرَّ جنوده من حوله وبقي واقفاً مواجهاً العدو مع فئة قليلة من جنده المخلصين يوم حنين، كما روى عبد الرحمن بن جابر عن أبيه، قال: "لمّا استقبلنا وادي حنين، انحدرنا في وادٍ من أودية تهامة، أجوف حطوط، إنّما ننحدر فيه انحداراً - قال: وفي عماية الصبح، وكان القوم قد سبقوا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيَّأوا وأعدُّوا - فوالله! ما راعنا ونحن منحطّون إلاّ الكتائب قد شدَّت علينا شدَّة رجل واحد، وانهزم الناس أجمعون، فانشمروا لا يلوي أحد على أحد، وانحاز رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذات اليمين، ثمّ قال: "أين أيُّها الناس؟ هَلُمَّ إليَّ! انا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله."

٤٢٥ـ البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص ص ٢٣-٢٤.

٤٢٦ـ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٢، ج ٣، ص ٢٧٨.

قال، فلا شيء، احتملت الإبل بعضها بعضاً، فانطلق الناس، إلاّ أنّه بقي مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

وعن البراء: كان أبو سفيان بن الحارث يقود بالنبيّ بغلته يوم حنين، فلمّا غشيَ النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم المشركون، نزل فجعل يرتجز، ويقول:
أنا النَّبيُّ لا كَذِبْ أنا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ
فما رُئِي من الناس أشدَّ منه."[٤٢٧]

هذه هي السُّنَّة لِمَن أراد أن يَسْتَنَّ بسُنَّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من قادة المسلمين ورؤسائهم.

إنّ شجاعة القائد وصموده يؤدّيان بالأمّة إلى النصر والعزَّة والكرامة، كما فعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في كلّ مواقفه الدينية، والاجتماعية، والسياسيّة، والعسكريّة.

---

[٤٢٧] ــ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ص ٧٤-٧٦.

شجاعة أبي بكر الصديق

وتولّى أبو بكر الصدّيقُ الخلافة بعد انتقال الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم إلى الرفيق الأعلى في الجَنَّة، وسار على نهج الرسول وسُنَّتِهِ، عندما قال في أوّل خطبة له بعد أن انتخبته الأمّةُ خليفة لها: "إنّما أنا مُتَّبعٌ ولَسْتُ بِمُبْتَدِع."[٤٢٨]

واتَّبع أبو بكر سُنَّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في جميع الأمور القياديّة التي تطلَّبت منه قرارات مصيريّة، وتجلّى صمود أبي بكر وشجاعته في إمضائه أمر الرسول صلّى الله عليه وسلّم ببعث جيش أسامة لقتال الرّوم، هذا الجيش الّذي عقد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رايته بيده الشريفة، ولكنّه انتقل إلى الرّفيق الأعلى في الجنّة قبل خروج الجيش، وبقي الجيش مرابطاً خارج المدينة حتّى انتخب أبو بكر خليفة.

"ويروى عن هشام بن عروة عن أبيه، قال: لمّا بويعَ أبو بكر رضي الله عنه، قال: لِيَتِمَّ بعثُ أسامة! وقد ارتدَّت العرب، إمّا عامّة، وإمّا خاصّة في كلّ قبيلة، ونَجَمَ النّفاق، واشْرَأَبَّت اليهودُ والنّصارى، والمسلمون كالغنم في الليلة المَطيرة الشاتِيَة، لِفَقْدِ نبيِّهم صلّى الله عليه وسلّم وقِلّتِهم، وكثرة عدوِّهم.

فقال له الناس: إنّ هؤلاء جُلُّ المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك؛ فليس لك أن تُفرِّق عنك جماعة المسلمين.

فقال أبو بكر: "والّذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أنّ السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولو لم يبقَ في القرى غيري لأنفذته."[٤٢٩]

٤٢٨ـ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٢٢٤.

٤٢٩ـ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٢٢٥.

ويروى أيضاً: "لَمّا مات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، عَظُمَ الخَطب، واشتدَّ الحال، ونجم النّفاق بالمدينة، وارتدَّ من ارتدَّ من أحياء العرب حول المدينة، وامتنع آخرون من أداء الزكاة إلى الصِّدّيق، ولم يَبْقَ للجمعة مقام في بلد سوى مكّة والمدينة، وقد كانت ثقيف بالطائف ثبتوا على الإسلام، ولم يفرّوا ولا ارتدُّوا.

ولمّا وقعت هذه الأمور، أشار كثير من الناس على الصِّدّيق أن لا ينفذ جيش أسامة لاحتياجه إليه فيما هو أهمّ، لأنّ ما جُهِّزَ بسببه في حال السلامة. فامتنع الصِّدّيق من ذلك وأبى أشدَّ الإباء إلاّ أن ينفّذ جيش أسامة، وقال: "والله لا أحلّ عقدة عقدها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولو أنّ الطير تخطّفنا والسباع من حول المدينة. ولو أنّ الكلاب جرَّت بأرجل أمّهات المؤمنين لأجهِّزنَّ جيش أسامة، وأمر الحرس أن يكونوا حول المدينة."

فكان خروجه في ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك، فصاروا لا يمرّون بحيٍّ من أحياء العرب إلاّ أرعبوا منهم، وقالوا: ما خرج هؤلاء من قوم إلاّ وبهم منعة شديدة، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فلقوا الروم، فهزموهم، وقتلوهم، ورجعوا سالمين، فثبتوا على الإسلام." [٤٣٠]

ونجحت الحرب النفسية في إخافة العرب كما قدّمنا من قبل، فليراجع.

هذا موقف قائد لا يهاب الموت، ولا يعرف المساومة، ولا التخاذل إذا ادلَهَمَّ الخطب.

---

[٤٣٠] ــ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٣، ج ٦، ص ص ٣٠٨-٣٠٩.

تواضع القائد وحكمته

ثمَّ خرج أبو بكر حتى أتى جيش أسامة، فأشخصهم وشيَّعهم وهو ماشٍ وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابّة أبي بكر، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله! والله لتركبَنَّ أو لأنزلَنَّ!

فقال: والله! لا تنزل، ووالله لا أركب! وما عليَّ أن أغبِّر قدَمَيَّ في سبيل الله ساعة. فإنّ للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تُكتب له، وسبعمائة درجة ترتفع له، وتُرفع عنه سبعمائة خطيئة، حتى إذا انتهى، قال: إن رأيت أن تُعينني بعمر فافعل. وكان عمر جنديّاً مع بعث أسامة. فأذن له، ثمّ قال:

"أيُّها الناس! قفوا أوصيكم بعشرٍ فاحْفظوها عنّي! لاتخونوا، ولا تغدروا، ولا تُمَثِّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تَعْقِروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلاّ لِمَأكلة. وسوف تَمُرُّون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له. وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها. وتلْقوْن أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً. اندفعوا باسم الله! أفناكم الله بالطعن والطاعون."[٤٣١]

تواضع القائد وحكمته تمثّلت خير تمثيل في تصرُّف أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه.

---

[٤٣١]ـ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ص ٢٢٦-٢٢٧. قال أبو بكر: "أفناكم الله بالطعن والطاعون"، عملاً بالحديث الشريف: "فناء أمّتي بالطعن والطاعون".

أمثلة أخرى من تواضع هذا الرجل العظيم:

"كان أبو بكر رضي الله عنه قبل تَوَلّيه الخلافة يحلب للحَيِّ أغنامهم، فلمّا بويع له بالخلافة، قالت جارية من الحيِّ: ألآن لا تحلب لنا منائح دارنا. فسمعها أبو بكر، فقال: بلى لعمري لأحلبنَّها! وإنّي لا يغيِّرني ما دخلت فيه عن خُلُق كنت عليه. فكان يحلب لهم، فربّما قال للجارية من الحيّ: يا جارية! أتحبّين أن أرْغي لك أو أصَرِّح؟ فربّما قالت: أرْغ! وربّما قالت: صَرِّح! فأيّ ذلك قالته فعل." [٤٣٢]

٤٣٢ـ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٤٣٢.

تواضع عمر بن الخطاب

وتواضع الخليفة الثاني، عمر بن الخطاب وشجاعته واهتمامه بأمر المسلمين لا يقلُّ عن تواضع أبي بكر وشجاعته شيئاً، فها هو لمّا أتاه نزول رستم قائد جيوش الفُرس القادسيّة لمحاربة المسلمين، يخرج من المدينة يستخبر الرُّكْبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار، ثمّ يرجع إلى أهله ومنزله.

وذات يوم لقي البشير بنصر المسلمين على الفُرْس، سأله: من أين؟ فأخبره.

قال: يا عبد الله! حدِّثني!

قال: هزم الله العدوَّ. وعمر يَخُبُّ معه ويستخبره. والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه، حتى دخل المدينة، فإذا الناس يُسلّمون عليه بإمرة المؤمنين، فقال: فهَلاّ أخبرتني رحمك الله، أنَّك أمير المؤمنين!

وجعل عمر يقول: لا عليك يا أخي![٤٣٣]

٤٣٣ــ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٨٣.

كَما تَكُونُونَ كَذَلِكَ يُؤَمَّرُ عَلَيْكُمْ

رحمك الله أيُّها الفاروق! يا من أعزَّ الله به الإسلام! هكذا كان الصِّدِّيق والفاروق رضي الله عنهما وأرضاهما، وكان المسلمون في زمانهم مثلهم، رجالهم ونساؤهم، لأنّ القائد يخرج من صميم الشعب، والشعب الصالح يخرج قادة صالحين، والعكس صحيح.

لقد شهد للمسلمين فعالهم وأعداؤهم، "والفضل ما شهدت به الأعداء".

ومن شهادة الأعداء للمسلمين، ما قاله رجل من الروم كان أسيراً بأيدي المسلمين فأفلت ولحق بهرقل أمبراطور الروم، فقال له: أخبرني عن هؤلاء القوم! فقال: أحدِّثك كأنّك تنظر إليهم، فرسان بالنهار ورهبان بالليل، ما يأكلون في ذمّتهم إلاّ بثمن، ولا يدخلون إلاّ بسلام، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه.

فقال هرقل: لئن كنت صدقتني ليرثُنَّ ما تحت قدمَيَّ هاتين.[٤٣٤]

وفي رواية ابن كثير: قال الرجل: "وجدت قوماً رهباناً بالليل، فرساناً بالنّهار، والله لو سرق فيهم ابن ملكهم لقطعوه، أو زنى لرجموه.

فقال: والله! لئن كنت صادقاً لبطن الأرض خير من ظهرها."[٤٣٥]

كان أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا يثبت لهم العدوّ فواق ناقة[٤٣٦] عند اللّقاء. فقال هرقل وهو على أنطاكية، لمّا قدمت منهزمة الروم: ويلكم! أخبروني عن هؤلاء القوم الّذين يقاتلونكم، أَليْسوا بشراً مثلكم؟ قالوا: بلى!.قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كلّ موطن.قال: فما بالكم تنهزمون؟

٤٣٤_ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ص ٦٠٢-٦٠٣.

٤٣٥_ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٤، ج ٧، ص ٧.

٤٣٦_ فواق ناقة = الوقت الذي يستغرق لحلب ناقة، وهو وقت قصير.

فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنّهم يقومون باللّيل، ويصومون بالنهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم. ومن أجل أنّنا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصب، ونظلم، ونأمر بالسخط، وننهى عمّا يرضي الله، ونفسد في الأرض. قال: أنت صدقتني.[٤٣٧]

وتصديق وتطبيق لما قاله الروم عن المسلمين من إقامتهم العدل ولو على ابن ملكهم، ما فعله عمر بن الخطاب من تطبيق الحدّ على ابنه الّذي شرب خمراً.

خرج عمر على الناس، فقال: إنّي وجدت من عبيد الله ابني ريحَ شراب، وإنّي سائل عنه، فإن كان مسكراً، جلدته. قال السائب بن يزيد: فشهدته بعد ذلك يحدُّه، وكان الّذي حَدَّه عبد الرحمن بن عوف.[٤٣٨]

شهادة أخرى لجنود الله ورسوله بالفضل يشهد لهم بها أسير كافر من أسرى بدر. "يروى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين أقبل بالأسارى فرّقهم بين أصحابه، وقال: "استوصوا بهم خيراً!"

قال أبو عزيز بن عمير بن هاشم، وكان بين الأسرى: فكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدَّموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز، وأكلوا لوصيّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إيّاهم بنا، ما تقع في يد أحد منهم كسرة خبز إلاّ نفحني بها، فأستحي، فأردُّها، فيردُّها عليَّ ما يمسّها."[٤٣٩]

هكذا تنتصر الجنود، جنود الإيمان الّذين مدحهم الله، وهو خير المادحين بقوله: (وَيُؤْثِرُونَ عَلى أنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.) (الحشر ٥٩/٩)

---

[٤٣٧]ــ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٤، ج ٧، ص ص ١٥-١٦.

[٤٣٨]ــ ابن حبان، السيرة النبوية، ص ٤٦٤.

[٤٣٩]ــ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٢، ج ٣، ص ٣٠٧.

فتح مكَّة

لقد مرَّ معنا كيف عامل مشركو مكة المسلمين، وكيف أخرجوهم من ديارهم بعد أن عذّبوهم وسلبوهم كلّ ما يملكون. وتنازل المسلمون عن ممتلكاتهم في سبيل الله ونصرة الإسلام بطيبة نفس.

لكنّ الرسول الكريم لم ينسَ لقريش الكافرة الضالّة فعلها اللا إنساني، واللا أخلاقي بالمسلمين، لا لذنب سوى أنّهم آمنوا بربّهم، واستمرّ الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم في بناء القوّة العسكريّة المسلمة المؤمنة، التي انتقلت من نصر إلى نصر، وأخذ عن طريق هذه القوّة الضاربة يضيّق على قريش بقطع طرق تجارتها، وبقصّ أجنحتها العسكرية، بضرب القبائل الموالية لها وإخضاعها الواحدة تِلْوَ الأخرى، ومن ثمَّ إدخالها في حظيرة الإسلام، والضربة القاضية التي وجّهها لحلفاء قريش، هي الضربة التي وجّهها لخيبر الّتي كانت تتآمر مع قريش وغطفان لضرب المدينة ضربة قاضية واستئصال شأفة الإسلام إلى الأبد، ولكنّ الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين كانوا لخيبر بالمرصاد، فعاجلها بضربة قاضية، في السنة السادسة للهجرة، وهكذا تضعضعت قوّة قريش العسكرية.

وفي السنة الثامنة للهجرة نقضت قريش اتفاقية الحديبية التي وقعتها مع الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم في السنة السادسة للهجرة، بمساعدتها بني بكر في حربهم مع خزاعة التي كانت في حلف مع النبي صلّى الله عليه وسلّم، وعمل قريش هذا كان خرقاً صريحاً لاتفاقية الحديبية، التي ورد فيها: "أن يكون بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش صلح لمدة عشرة أعوام."[٤٤٠]

[٤٤٠] ــ ابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ٢٠٥.

لم يُفوِّت الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم الفرصة للإيقاع بقريش وإخضاعها إلى الأبد، وإدخالها في حظيرة الإسلام والإيمان، وهكذا كان.
وخرج الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم على رأس عشرة آلاف مقاتل، وذلك لعشرِ خَلَوْنَ من رمضان، فصام حتى بلغ الكَديد، بين عُسْفان وأمَج، فأفطر بعد صلاة العصر، وشرب على راحلته علانية، ليراه الناس، وأمر بالفطر، فبلغه صلّى الله عليه وسلّم أنّ قوماً تمادَوا على الصيام، فقال: أولئك العُصاة...
وقد أخفى الله تعالى عن قريش الخَبَر لدعوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، إلاّ أنّهم وَجِسُونَ خائِفون...[441]

وفي اليوم العشرين من شهر رمضان المبارك دخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مكّة منتصراً على رأس جنود الإيمان، وبهذا النصر المبين تحطّمت قوى الكفر والشرّ والعدوان من جزيرة العرب إلى الأبد.
دخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مكّة يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشّعاً، تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح.

وعن عبد الله بن مسعود، قال: "دخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مكّة يوم الفتح، وحول البيت ستون وثلثمائة صنمًا، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: (جاء الحقّ وزهق الباطل، جاء الحقّ وما يبدي الباطل وما يُعيد.)"[442]

وشتّان بين دخول الرسول صلّى الله عليه وسلّم مكّة ومعه المهاجرون والأنصار منتصرين، ودخول الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم بعد رحلته إلى الطائف وطرد أهل الطائف له شرَّ طردة في السنّة العاشرة للبعثة النبوية، حيث دخل مكة في جوار المطعم بن عديّ الّذي كان مشركاً.

وفُتِحَ له باب الكعبة، وروي عن عثمان بن طلحة، سادن الكعبة، قال: "كنّا نفتح الكعبة في الجاهليّة، يوم الإثنين والخميس، فأقبل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم

٤٤١ــ ابن حزم، جوامع السّيرة، تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد، دار المعارف بمصر، ص ٢٢٦ــ
٤٤٢ــ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٢، ج ٤.

يوماً، يريد أن يدخل الكعبة مع النّاس، فأغلظت له، ونِلْتُ منه، فحَلُمَ عنّي، ثمّ قال: يا عثمان! لعلّك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي، أضعه حيث شئت.

فقلت: لقد هلكت قريش يومئذٍ وذلّت.

فقال: بل عمرت وعزّت يومئذٍ.

فوقعت كلمته منّي موقعاً ظننت يومئذٍ الأمر سيصير إلى ما قال.

فلمّا كان يوم الفتح، قال: ائتني بالمفتاح يا عثمان!

فأتيته به، فأخذه منّي ثمّ دفعه إليّ، وقال: خذوها خالدة، تالدة، لا ينزعها منكم إلاّ ظالم! يا عثمان! إنّ الله استأمنكم على بيته، فكلوا ممّا يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف. فلمّا ولّيْت، ناداني، فرجعت إليه، فقال: ألم يكن الّذي قلت لك؟

قال: فذكرت قوله لي بمكّة قبل الهجرة: لعلّك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي، أضعه حيث شئت!

قلت: بلى! أشهد أنّك رسول الله." [٤٤٣]

ثمّ وقف على باب الكعبة، فقال: (لا إلَهَ إلاّ اللهُ، صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ، وَنَصرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأحْزَابَ وَحْدَهُ.

ألا كُلُّ مَأثُرَةٍ، أوْ دَمٍ، أوْ مَالٍ، يُدَّعَى، فَهْوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هاتَيْنِ، إلاّ سَدانَةَ الْبَيْتِ، وَسِقَايَةَ الْحاجِّ.

يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إنَّ اللهَ قَدْ أذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجاهِلِيَّةِ وَتَعْظِيمَها بِالآباءِ. النّاسُ لآدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرابٍ.

ثُمَّ تلا هذه الآية: (يا أيُّهَا النّاسُ! إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ، إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبيرٌ.) (الحجرات ٤٩/١٣)

ثمّ قال: يا معشر قريش! أو يا أهل مكّة! ماذا تَرَوْنَ أنّي فاعل فيكم؟

قالوا: خيراً، أخٌ كريم، وابن أخ كريم.

فقال: اذهبوا! فأنتم الطّلقاء.

فأعتقهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة.) [٤٤٤]

٤٤٣ــ الدياربكري، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، ج ٢، ص ٨٨.

٤٤٤ــ الدياربكري، تاريخ الخميس، ج ٢، ص ص ٨٤-٨٥.

ثمّ اجتمع النّاس للبيعة، فجلس لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على الصَّفا، يبايع النّاس، وعمر بن الخطاب أسفل منه، يأخذ على الناس، فبايعوه على السّمع والطاعة فيما استطاعوا.

ولمّا فرغ من بيعة الرجال، أخذ في بيعة النساء، وهو على الصّفا، وعمر جالس أسفل منه يبايعهنَّ بأمره، ويبلّغهنَّ عنه، فجاءت هند بنت عتبة، امرأة أبي سفيان، وهي متنكّرة خوفاً من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يعرفها لِمَا صنعت بحمزة.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أبايعكنَّ على أن لا تشركن بالله شيئاً. فبايع عمرَ النساءُ على أن لا يشركن بالله شيئاً.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ولا يسرقن.

فقالت هند: إنّ أبا سفيان رجل شحيح، فإن أصبت من ماله هَنَاة!

فقال أبو سفيان: ما أصبت، فهو لكِ حلال.

فضحك النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعرفها، وقال لها: وإنّك لهند!

فقالت: نعم، فاعْفُ! عفا الله عمّا سلف يا نبيَّ الله، عفا الله عنك.

فقال: ولا يَزْنِين.

فقالت: أوَتزني الحُرَّة؟

فقال: ولا يقتلن أولادهنَّ.

فقالت: ربَّيْناهم صغاراً، وقتلتهم كباراً، فأنتم وهم أعلم. وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قُتِلَ يوم بدر.

فضحك عمر حتى استلقى. فتبسّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

فقال: ولا يأتين ببهتان.

فقالت: والله! إنَّ البهتان أمر قبيح، وما تأمرنا إلاّ بالرشد ومكارم الأخلاق.

فقال: ولا يعصينك في معروف.

فقالت: والله! ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك.

فلمّا رجعت، جعلت تكسر صنمها، وتقول: كُنّا منك في غرور."[٤٤٥]

٤٤٥ـ الدياربكري، تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٨٩.

وهكذا محا الله الشرك عن مكّة وعن الكعبة إلى الأبد، وعادت إليها قدسيّتها الأولى، يوم بناها نَبيَّا الله، إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وأصبحت قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بعد قرون وأجيال طويلة من الشرك وعبادة الأصنام، كلّ هذا حدث بنعمة الله، وصبر الرسول الكريم وصحابته المؤمنين، الّذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.